المحاورات السقراطيـــــة *

بقلم الأستاذ ا. د. لندساى

تعريب الأستاذ إبراهيم عبد الحميد زكى

٤ — ختام البحث

يلزمنا أن نغير مدلول كلمة الجهل إذا أردنا أن نفسر عجز أولئك الرجال الخيرين عن تعريف ماهية الخير .

ولقد اعترف سقراط بأنه نفسه لم يستطع أن يعرف الفضيلة ولم يجد رجلا واحداً يمكنه أن يفعل ذلك ، فهل كل الرجال — وهو من بينهم — شريرون ؟

يناقش أفلاطون هذه المعضلة فى المحاورة (مينو) ويحلها بأن يضع بين المعرفة والجهل حالة ثالثة هى « الرأى الصحيح » .

فالرجال الذين يفعلون فعلا صائبا إنما يؤمنون بالصواب من غير أن يشعروا، ومثل هذا الايمان الصحيح منحة من الله، ولا يمكن أن ينقل بالارشاد والجدل ، وبهذا التعديل يتخلص افلاطون من هذه الورطة التى وقع فيها سقراط ، ومع ذلك فهو يظل محتفظا بالاعتقاد فى أولية المعرفة، لأن الرجل الذى يعرف الفضيلة هو القادر فقط على إرشاد الغير ، أو هو الكفء لأن يقيم بوساطة التشريع مقياساً يركن إليه الآخرون فى ثقة عمياء .

وعلى ذلك فالفيلسوف العارف يصبح الرجل الطيب الكامل الوحيد، لأن طيبته من صنع يديه، ومعرفة هذه يمكن أن تدرك بهذا الأسلوب الذى وضعه سقراط ، أى بالبحث الجدلى فى طبيعة الخير .

وهذا البحث الجدلى عند أفلاطون مركب، ويتضمن كل ما سواه بدرجة أعظم مما أدركه سقراط أو تصوره ، فهو يتبع أسلوب سقراط ، ولكن الغاية التى ينشدها ليست غاية منعزلة قائمة بنفسها ويمكن أن توصف مثل غاية الصانع ، بل هى وحدة التجاريب كلها ، ومن الممكن أن تدرك بالعقل ولكن لا يمكن أن تدرك بالحواس .

وحل أناس آخرون هذه المعضلة بطرق أخرى فقالوا إن فى الحياة أشياء هى غايات فى ذاتها وضربوا لذلك مثلين بالمعرفة واللذة ، فقد قال الميغاريون إن المعرفة هى الخير ، وقال القرنائيون إن اللذة هى الفضيلة ؛ ومن المحتمل جداً أنهم استرشدوا فى ذلك ببعض تلميحات فى تعاليم سقراط كما هو ظاهر فى المحاورة (بروتاجوراس) .

(*) راجع مجلة « المعرفة » ج ٣ و ٥ و ٦ .

قد ناقشنا الآن الحلول التى وجدها الآخرون لمعضلات سقراط ، والتى يحتمل أنه لم يعن بايجادها، فقلما يرى المكتشف موضع النقص فى اكتشافه؛ ولكن إذا صرفنا النظر عن ذلك نرى أن سقراط فى الواقع قد حل معضلات نظريته حلا عمليا فى أخلاقه ، وهو إذا لم يواجه الصعوبة الناشئة من ضعف الارادة فرجع هذا جهله بها، فقد كان رجلا ، إدراك الشيء وفعله عنده يسيران جنبا لجنب ، وما كانت له قوة الرأى وثباته التى لا يعتريها شيء من الضعف إلا لمجرد أنه كان خلوا من هذا الضعف ، ومع أنه لم يكشف طبيعة الخير فما تخلى يوماً عن إيمانه الثابت به ، ولا تردد عزمه القوى عن اتباع أحسن المعارف لديه ، ومع أن الجزء غير العاقل من النفس لم يحظ بمكان ما فى نظريته، فان أثره كان واضحا كل الوضوح فى أعماله .

ومهما كانت تلك الاشارة الخفية التى يؤولها البعض بأنه كان ذا مزاج عصبى صوفى تصحبه أطوار عقلية خفية، أو كانت ـ كما يقول البعض الآخر ـ ما نسميه صوت الضمير، فلا جدال فى أن تلك الاشارة الخفية لم تكن ثمرة التفكير والبحث، بل هى منحة من الله لتهديه أقوم السبل فى مفاوز السلوك ؛ وترى أفلاطون يجعله يقول عنها فى الجمهورية: إنها إحدى السبل التى يهبها الله عباده لارشادهم إلى الفلسفة الحقة عندما تكون ضدهم كل المؤثرات الخارجية .

إذن فلم تكن لسقراط كرجل تلك الجانبية الواضحة فى نظريته ، ومع هذا فلم يناصبه خصومه العداء بلا مبرر ، فقد كفر هو عن عيوب نظريته ، ولكن هل كان هنالك ما يؤكد أن تلامذته وأتباعه سوف لا يتلقون هذه النظرية بدون أن يعنوا باصلاحها بأخلاقهم ؟.

وقد قال سقراط أن ليس هناك خير جدير بالحصول عليه إلا إذا استطاع أن يقف فى وجه أسئلته ، ولكنه لم يجد ذلك الخير، وقد سد هذا النقص بأن أضاف من لدنه اعتقاده التام فى الخير الذى يسعى وراءه ، وهذا حسن ، ولكن ماذا تكون نتيجة تعاليمه لقوم لم يؤمنوا بهذه العقيدة ؟ وقد يقول خصومه : ها هنا رجل ينقد ويهدم عقائدنا ، ويسخر من أساتذتنا الأشراف ، ومن مثلنا ، ثم هو لا يستبدل هذا الذى هدم بشيء ، بل هو يعترف بأنه يعجز عن ذلك كل العجز ، وإذن فما هى النتيجة المحتومة لهذا التصرف ؟ وما الواجب علينا أن نفعله إذا كان لزاما علينا أن نتخلى عن كل شيء يقوم عليه المجتمع لمجرد أننا عاجزون عن تبريره على قاعدة معقولة ؟

وقد أجيب على هذه الاسئلة باجابتين :

ويمكن أن نلخص إجابة أفلاطون بتلك الكلمة المشهورة التى قالها هيجل وهى « إن ما يجرحه الفكر يمكن أن يشفى بالتعمق فى التفكير» فقد كان يؤمن بأنه إذا كانت وظيفة النقد فى بادىء الأمر هى الهدم ، فانما هو يهدم ليبنى بناء خيراً من سابقه ، وليس التفكير هو الخطأ ، إنما الخطأ هو التقصير فى التفكير ، وحتى أفلاطون يعترف بأن النقد قد يؤذى البعض،

فهو يدعو فى الجمهورية إلى وجوب عدم تدريس الجدل فى مستهل العمر، لأن الصغار عند ما يبدأون فى تذوقه يتخذونه ألعوبة ، ويستعملونه لمجرد إظهار التناقض ، فيقلدون أولئك الذين يناقضونهم ويناقضون هم سواهم بدورهم فرحين بذلك مثل الكلاب التى تسحب وتتلف كل ما يكون قريباً منها .

ولكن إذا درس الجدل والنقد وطبقا فى عناية ودقة، ففى الامكان أن يضعا هما فقط الأخلاق والخير على أساس ثابت .

وقد قال أناس آخرون غير ذلك ، أو على الأقل أحسوا إحساساً مغايراً لذلك ، فلم يروا سوى الناحية الهدامة فى تعاليم سقراط ، وذلك بأنهم شعروا المرة بعد المرة ـ كلما جادلهم سقراط ونقد آراءهم ـ أنه قد غلبهم جدلا ، ولكنهم ظلوا يشعرون فى قرارة نفوسهم أنهم لم يقتنعوا، وأن عليهم ـ لأجل أن يكون كل ما يرونه ذا قيمة فى الحياة ـ أن يركنوا إلى تلك المعتقدات والأفعال التى لا يمكن أن يبررها العقل.

وفى الابولوجيا يجعل أفلاطون سقراط يقول: إن متهميه يمثلون السياسيين والخطباء والشعراء ، وهذا الجمع بينهم ذو معنى، إذ أنهم كلهم يعتمدون على ما يسميه أفلاطون الاستمالة أو الاغراء أو ما يقابل المعرفة ، وهؤلاء جميعهم مهما استعملوا المعارف فانهم يلجأون إلى تلك العناصر الغريزية العميقة فى النفس، وقد نقدهم سقراط بأجمعهم واتهمهم بالكذب .

وقد استطاع الرجل السياسى أن يرى كيف أن سقراط بالتجائه إلى تشبيه السياسة بالصناعات المتقنة أظهر الديمقراطية فى صورة مضحكة ، ولم يستطع الخطيب أن يتحمل سماع معلم يصر على أن الاقناع والاستمالة يجب أن يستمدا من المعرفة ، كذلك الشاعر لم يقو على احتمال هذا النقد الذى يقول إن سلطة الشعر يجب أن تلتمس فقط فيما ينطوى عليه من الحقيقة العلمية ، وعلى ذلك فان كان سقراط صادقاً فيتحتم أن يزول الشعر والسياسة والخطابة ، وكان أفلاطون على استعداد لأن يقول إن المجتمع يجب أن يقلب رأساً على عقب، وأن تخضع جميع العناصر للفلسفة، ولكن ليس بمستغرب ـ إذا كان جل من رأى فى تعاليم سقراط الدمار المنتظر ولم يكن لهم إلى جانب ذلك إتيانه هو وأفلاطون بالفلسفة ـ أقول ليس بمستغرب إذا شعر هؤلاء بأن تعاليم سقراط تعنى خراب أثينا ، وثمة اليوم من يوافقهم فيما ذهبوا اليه ، وهذا الحكم هو حكم جميع أولئك الذين يؤمنون بأن الحياة فى نهاية الأمر غير عقلية، وبأنها تعتمد على المعتقدات التى لا يمكن فقط ان تهبط إلى مستوى المنطق، بل إن من الواضح كل الوضوح أنها ليست منطقية ، وبأن الدين والأخلاق والفن كلها غريزية، وبأنها تفسد إذا خضعت للقوة العاقلة التى يجب أن تنحصر فى البحث عن تفاصيل آلة الحياة .

(البقية على الصفحة ١٣٦٠)